المحاضرة الرابع: العمران في الفكر الإسلامي.

مر تخطيط المدن بمراحل متعددة بدءا من مجرد كونها مجموعة مساكن عند منابع الماء في عصور ما قبل التاريخ ذات البعد التنظيمي الواضح بخاصة في المناطق ذات الحضارات في مصر وبلاد الرافدي الشام.

وقد انقسمت المدينة في مصر عند قدماء المصريين من حيث الوظائف إلى مدن ملكية مثل مدن منف، ومدن إدارية تجارية أسيوط وأخميم، ومدن حربية هابو، حصن، ومدن الموتى سقارة، ومدن عمالية كاهون، خنت كاوس، تل العمارنه، وأهم ملامح تخطيط مدينة تل العمارنة هو امتدادها على الضفة الغربية للنيل يخترقها ثلاث شوارع رئيسية واسعة نسبيا تمتد موازية للنيل يتوسطها القصر الملكي وتتعامد عليها شوارع عريضة، وتتجمع أحياء المدينة المختلفة حول القصور الملكية و المعابد و المباني الرسمية، كما تقع بيوت الطبقة الحاكمة والغنية على الشوارع الرئيسية يحيط بها حدائق و ممرات.

أما في بلاد الرافدين فقد بدأ العمران المنظم سنة 4000 ق.م، وظهرت مدن هامة مثل مدينة أور، آشور، نينوى، وأشهرها مدينة بابل، وكانت أغلب المدن ذات شوارع واسعة تنتهي ببوابات محاطة بأسوار دفاعية.

ومع فترات التواجد الإغريقي في الشرق تم إنشاء مدن ذات التخطيط السائد لمدنهم فنجد مدينة الإسكندرية بمصر والتي بناها الأسكندر الأكبر ذات تخطيط شبكي وفق أفكار هيبوداموس الاغريقى، التي تتحدد معالم مدينته حيث الشوارع تكون متعامدة لها محوران متعامدان يقع عند تقابلهما الآجورا (قلب المدينة (بها السوق سائر المؤسسات الإدارية، الحمامات، المسارح، الملاعب، كما تبنى المعابد على الأجزاء المرتفعة من الجهة الشرقية نحو الشرق، أما تخطيط المساكن فهي عبارة عن غرف ذات فناء داخلي مربع أو مستطيل.

أما فى الفترة الرومانية فقد تم إنشاء مدن كاملة في المناطق المستعمرة في المنطقة العربية وشمال إفريقيا وهذه المدن تكاد تكون مدن رومانية متكاملة العناصر والتخطيط مثل مدينتي تيمقاد وتيبازا، ومن خصائص المدينة الرومانية هو دمج المنطقة المقدسة والآجورا "الإغريقية" في موقع واحد وهو الفورم بمركز المدينة الذي يضم الكوريا مقر المجلس البلدي، والبزليكا كمنشأة دينية (الكنيسة)، كما يشمل سوق المدينة. وكان تخطيط المدينة الرومانية منتظم مكونا من شبكة من الشوارع المتعامدة بينها أقسام عبارة عن مربعات أو مستطيلات، ويوجد بها شارعان رئيسيان متعامدان بهما بوائك على الجانبين، ويحيط بالمدينة سور غير مقيد بطبوغرافية الأرض.

– المدينة الإسلامية نموذجا نبويا:

كان إعادة تشكيل البناء المادي القائم على القيم الدينية في الدولة الإسلامية على قواعد جديدة، يمثل القاعدة العمرانية والاقتصادية والاجتماعية و السياسية والعسكرية في بناء المدن الإسلامية، بعد ذلك أعيد تخطيط المدينة بعد الهجرة بمعايير حضارة الإسلامية الثابتة منها والمتغيرة، وكان سعي الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تسمية المدينة متلازما مع اهتمامه صلى الله عليه وسلم بالكيان المادي للمدينة الإسلامية الأولى وهو في السياسة و الإدارة أبرزه الرسول صلى الله عليه و سلم من قبل أن يمكنه الله تعالى للمسلمين فقال عليه السلام: **" أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلا حتى يورثكم الله أرضهم و ديارهم، أتسبحون الله و تقدسونه "**[1]، ليكون نواة لامتداد طبيعي للحضارة الإسلامية مع اعتبار القيمة العسكرية في إنشاء المدن فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لما اختار المدينة موطنا للدعوة الإسلامية، التي كان القائمون بها لا يزالون قلة ضعيفة لم يكن من أجل مبايعة أهلها فحسب ولكن إلى جانب ذلك لموقعها الآمن من الناحية العسكرية من عدوان قريش وفارس على السواء، كذلك لازدهارها الاقتصادي لكونها بعد مكة مركزا تجاريا هاما، ولتفوقها عليها في الإنتاج الزراعي وأبار المياه.

ونتيجة لسياسة الرسول الاقتصادية الحكيمة اتجه جانب كبير من التجارة نحو المدينة، فتقدمت على مكة لأول مرة في تاريخها في هذا المجال وأخذت المساحات الواقعة بينهما وبين الطرق التجارية تمتد اتجاه الغرب مارة بوادي العقيق، ومسجد القبلتين، وفي اتجاه الجنوب الغربي مارة غرب جبل عير، وهنا ظهرت أهمية موضع بئر عورة الذي أصبحت من ذلك الحين مركزا تجاريا هاما، وأنشئت بعض الجسور على وديان المدينة تيسيرا للمواصلات، وجدير بالذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم تنبه إلى أهمية القناطر والمعابر، فشجع على إنشائها حتى تتصل شوارع المدينة، وكثرت في المدينة كذلك الأسواق، ومراد بها الشوارع التجارية، وانصرف إليها الناس من أهل المدينة وغيرهم، وزاد السكان زيادة كبيرة.

وبهذه الأسس التخطيطية التي أحدثها الرسول صلى الله عليه وسلم، وأدخلها في بناء المدن، أسس مدينة غير يثرب التي كان يعرفها العرب قبل الهجرة، ولقد اتبع الخلفاء الراشدون من بعده منهاج الرسول صلى الله عليه وسلم في تأسيس المدن الإسلامية خاصة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولم يختلفوا عنها إلا في أشياء

---

1 – أحمد فرج، السلطة الإدارية والسياسة الشرعية في الدولة الإسلامية، ط1، مؤسسة الإسراء للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1414 هـ/ 1993م، ص15.

قليلة كانت تفرضها بعض الحالات الناتجة عن الظروف الزمانية والمكانية، فقد تمسكوا جميعا بالقواعد الأساسية المرتبطة بالعوامل الحربية، أو السياسية، والاقتصادية بجانب الشروط الأساسية التي يجب توفرها في كل موقع.

ومنذ بدأت الفتوحات الإسلامية شيد المسلمون عددا من المدن ، وكان ذلك ناتجا عن تطور عملية الفتح خاصة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث أنشئت كقواعد عسكرية، التي تحولت فيما بعد إلى مدن، وكان لتأسيسها أثره في تطور عمارة المدن الإسلامية، وأولها مدينة البصرة التي أسسها عتبة بن غزوان سنة (14هـ/635م) ، والكوفة أسسها سعد بن أبي وقاص سنة (17هـ/ 63م)، والفسطاط شيدها عمرو بن العاص (21هـ/641م) ، ثم تأسست مدن في عهد الخلافة الأموية ومن أبرزها القيروان أسسها عقبة بن نافع سنة (50هـ/670م)، ومدينة واسط شيدها الحجاج بن يوسف الثقفي (83هـ /702م).

أضاف الأمويون الكثير من المرافق العامة للمدينة وتطور العمران بشكل ملحوظ في عهدهم، واتضح بالتخطيط السليم للمدن والأبنية مثل منشآت الحكومية، ودور العلم، والبيمريستانات، والشرطة، والدواوين، والمساجد وغيرها. وكانوا يضعون هذه المرافق إما في المركز مع المرافق الرئيسية أو على طول الشوارع الرئيسية التي تربط الضواحي بمراكز المدن واتضحت بشكل منظم في دمشق كما شيدوا القصور المميزة، وعرفت بروعة بنائها ونافست دار الخلافة ودور الإمارة. أضف إلى ذلك سمح الأمويون للناس بالبناء في الأسواق فلم تعد أرضا فضاء بل أنها أصبحت مبنية والدكاكين ثابتة فيها وكانت بداية لإنشاء الأسواق الثابتة في العصور الإسلامية اللاحقة وتميز العصر الأموي بطراز من البناء وأسلوب انتشر في كافة البلاد الإسلامية وعرف بطراز البناء الأموي.

وأسس العباسيون مدينة بغداد شيدها الخليفة أبو جعفر المنصور (145هـ/ 762م)، كما أسست الدولة الفاطمية مدينة القاهرة (358هـ/969م)، كما تأسست بالمغرب الإسلامي عدة مدن منذ القرن الأول للهجرة، فما هي أهم المدن التي تأسست بالمغرب الإسلامي وما أثر مدينة الرسول صلى الله عليه و سلم عليها؟.